الأنا والآخر في الخطاب الشعري العراقي المعاصر
بين المشاكلَة والمغايَرة؛

أ.د. عباس أمير

جامعة القادسية _ العراق

University off Al-Qadisiyah

abbasameir@gmail.com abbas.muariz@qu.edu.iq

الخلاصة :

- العلاقة بين الـ(أنا) والـ(آخر) تدور بين الوصل والفصل، فهي تتسم بالتواصل مرة، وبالتباعد والتباين مرة أخرى. ولكن الـ(أنا) وهي تسعى إلى امتلاك امتيازها ووعيها بذاتها، لا تنفك في صلة بالـ(آخر)، فإذا فارقته فإنها تفارقه لترجع إليه، ولتبني معناها، بهدي من اختلافها معه.

- تنتظم علاقة الأنا بالآخر في الخطاب الشعري العراقي المعاصر ضمن واقع عربي وعالمي ، يشهد صراعا سياسيا متناميا، ويتخلله، وما زال، الكثير من التحول في النظم الاجتماعية وما يرتبط بها من تغيّر في المنظومات الثقافية العالمية، فضلا عن الآثار المترتبة على تحديات الحداثة وما بعدها، ومن ثم العالمية والعولمة، ما يعني أن علاقة الأنا بالآخر ما عادت هي هي، ومن ثم فإن جدلية الأنا والآخر وتجلياتها واستشرافها وتمثلها في الخطاب الأدبي ليس كما هو عليه الحال في خطاب سابق لهذا الخطاب.

- علاقة الأنا بالآخر، إما أن تكون، وبالتعاقب، علاقة مشاكلة أو علاقة مغايرة. وهذا ما يتجلى في الخطاب الشعري العراقيّ خاصة. فيمتاز خطاب المشاكلة بالسماح للمتلقي بمشاركة الشاعر في بناء معنى أدبي شفيف، تتداخل مكوّناته وتترابط، بما لا يفقد التواصل الأدبي ضرورته. أما خطاب المغايرة فيعمل فيه السطح الحسي للنص على مفارقة المعنى الشعري الذي يتحصّن بكثافة اللغة وتشظّي العلاقات الرابطة بين مكوناتها في الفضاء الأدبي للعلاقة بين الـ(أنا) والـ(آخر).

- رسَمَ الخطاب الشعري المعاصر، صورة الـ(آخر) من حيث هو المماثل شريك الأنا وامتدادها الطبيعي، والمشابه الذي تعدّه الأنا مثابة طموحها وأفقها الاستعاري المنشود، مرة، ومن حيث هو المغاير الذي تواجهه بعنف، أو تنسحب من مواجهته بالعود إلى جوّانياتها، مرة أخرى. ولقد تجلّى ذلك واضحا، في خطاب الـ(أنا) الأدبي الذي يستند إلى التماثل والتشابه مرة، وإلى الاختلاف والمغايرة مرة أخرى.

الكلمات المفتاحية : الأنا والآخر الخطاب الشعري الشعر العراقي المعاصر المشاكلة المغاير

The Ego and the Other in Contemporary Iraqi Poetic Discourse

between problems and contrasts;

Mr. Dr. Abbas Amir

Al-Qadisiyah University_Iraq

University off Al-Qadisiyah

abbasameir@gmail.com abbas.muariz@qu.edu.iq

Abstract

The relationship between the self and the other is based in agreement and disagreement. Sometimes, the self agrees with the other; in some other times, it does disagree. As the self develops consciousness of its stature, it develops also a relationship with the other, so as to enhance its consciousness of itself. This relationship, especially in contemporary Iraqi poetry, is realized in relation to the changing cultural scene in a globalized perspective. It can cannot have its past configurations within the modern and postmodern milieu.

This relationship is of two stands: agreement and disagreement. This results into two types of literary discourse; the first allows the addressee participate with the poet in structuring an interrelated meaning cohesive product. The disagreement discourse, however, depends heavily on the texts and its paradoxical configurations that rely on the language density and the distractions amongst its components within the literary space of the self and the other.

Keywords: The I and the Other, the poetic discourse, contemporary Iraqi poetry, the different problem

المقدمة :

يفترض البحث، ابتداء، وجود علاقة وثيقة بين الـ(أنا) والـ(آخر)، وأن هذه العلاقة تدور بين جنْبَتَيْ؛ الوصل والفصل، فهي تتسم بالتواصل مرة، وبالتباعد والتباين مرة أخرى. ولكن الـ(أنا) وهي تسعى إلى امتلاك امتيازها ووعيها بذاتها، لا تنفك في صلة بالـ(آخر)، فإذا فارقته فإنها تفارقه لترجع إليه، ولتبني معناها، بهدي من اختلافها معه. ومن هنا يذهب البحث إلى تقصّي تجليّات تلك العلاقة ومرّات تمثّلها في الخطاب الشعري العراقي المعاصر، في الثلاثين السنة الأخيرة.

وبغية الوصول إلى أهداف البحث التي تشتمل عليها فرضيّته الأولى، يعمل البحث على إجراء مقاربة منهجية لموضوعه، استنادا إلى أداتين تحليليتين إجرائيتين، هما في الأصل، مصطلحان لسانيان عربيان، جهد البحث في جعلهما مؤطّرين ضابطين لتصوّراته الفكرية التي تسعى إلى تشخيص مفهوم الأنا والآخر وضبط حراكه من طريق الخطاب الأدبي. أمّا مساق البحث في تلك الفرضيّة وأهدافها فقد استدعى تقسيمه على، توطئةٍ، ومطلبين، هما؛ مشاكلة الـ(آخر) وتمثّل المعنى، ومغايرة الـ(آخر) وتمثّل المعنى. أما منهجه في قراءة مفهوم الأنا والآخر، وتجليات ذلك المفهوم في الخطاب الشعري العراقي المعاصر، فقد استند فيه إلى القراءة التأويلية وسيميائيات الخطاب.

أوّلًا: توطئة، أو مهاد نظري:

لعلنا لا نختلف على أن الآخر ضرورة وجودية ومعرفية بالنسبة إلى الذات، حتى أن الوعي بصياغة الضمير (أنا) وعي معطّل تماما إن لم يقع على الطرف المقابل لصياغة الـ(أنت)، والـ(هو). فالـ(أنت، هو) مضمر الـ(أنا) وغيابها، وهو الشرط الوجودي لتوازنها، كأنه كفّة الميزان الأخرى. نعم يبدو (الآخر)، لأول وهلة، من حيث هو وجود حسيّ أجنبيا عن الـ(أنا)، وتبدو البينونة جليّة بين الوجودين الحسيين، ولكن ذلك الوجود الحسي ليس بشيء حينما نضعه قبالة الوجود النفسي أو الذهنيّ. فالـ(آخر) المضمر، هاهنا، هو ما يمنح الذات مقومات ارتكازها ويمكّنها من الاهتداء الى معناها. وهذا يعني أن كلًّا من الـ(آخر) والذات متعلق بمواجهِهِ، وأن ارتباط أحدهما بالآخر يعني ارتباط الإنسان بوعيه بوجوده، أما فصلهما فهو "فصم الذاتية عن نفسها"[1] والـ(آخر)، بعد ذلك، ليس وجودا شخصيا مغلقا ليس غير، وإنّما هو وجود قائم ضمن السياق الاجتماعي والثقافي الذي يمنح الخبرة ويبني الهوية، ويحفّز الذات المثقلة بالآمال والآلام، والزاخرة بالرؤى والطموحات، والحريصة على تحقيق معناها، على اكتشاف الذات، الاكتشاف الذي لا ترى فيه الذات تهديدا مرة، وترى فيه تهديدا وجوديا ونفسيا وثقافيا واجتماعيا مرة أخرى[2]، ما يعني أن الذات، وهي تعيش ضرورة الاتصال بالآخر، بإزاء خيارات ثلاثة، الخضوع الى الآخر أو رفضه تماما أو التعايش معه ومحاورته. أما الاستسلام له فيعني التخلي عن الامتياز والتضحية بالمسافة والاكتفاء بالوجود الحسيّ. وأما رفضه فيعني اعتزال متطلبات الكينونة واستبدال الوجود الذهني بالوجود العاطفي وفقدان القدرة على امتلاك المعنى الذي تهبه فكرة الاستعارة بمعناها الوجودي. وأما محاورته فتعني توسعة الفضاء المعنوي وتجسير المسافة بين الخيال والواقع والنجاة من الوقوع ضحية النسق الاستبداديّ؛ (إما... أو...) !

ولاشك أن لتلك العلاقة بين الـ(أنا) والـ(آخر) صلة بما يجري في الوسط الاجتماعي الذي تحكمه مجموعة من القيم والمعايير، وأن انتظام تلك المعايير وفاعليتها في الوسط الاجتماعي, ثمّ ثبوتها النسبيّ , يعني أن الفرصة المتاحة, لخلخلة واحدية الأنا والآخر لصالح ثنائية غير متوائمة تحكم علاقة الـ(أنا) بالـ(آخر)، هي فرصة محدودة غالبا. ولكن خلخلة ما لتلك المعايير, - مع غضّ النظر عن مدى مشروعية تلك الخلخلة – تعني أن الفرصة سانحة لبروز تلك الثنائية بعدِّها أداةً ووسيلةً, وبعدِّها غايةً في بعض الأحيان، وبحيث تستبدل هوية الآخر بغيرها، وتتشظّى الـ(أنا) المعنوية الواحدة، لتصير (أنا) و الـ(آخر). وحينها تفقد الـ(أنا) معناها، وتضحي بحصانتها، وتخسر وضوحها.

وكثيراً ما تحصل الخلخلة القيمية في المجتمعات, حينما تستشعر تلك المجتمعات تهديداً ما لمنظومتها القيمية, ولمعاييرها المعرفية والدينية والأخلاقية, سواءً أكان ذلك التهديد تهديداً خارجياً أم داخليا, وفي الحالتين, يعمل ذلك التهديد السياسي والاقتصادي والديني والثقافي على تعميق النزاعات والخلافات وتنمية روح الاستقطاب بين مكونات ذلك المجتمع, أي بين حاملي القيم المعيارية الضابطة لنظام ذلك المجتمع المتآلف معرفياً واجتماعيا، مع أنه يتصف بالاختلاف بين مكوناته. وهنا, يجب التمييز بين ما يترتب على ثنائية الأنا ولآخر من مشكلات فردية ومجتمعية، من جهة, وبين ما يترتب على علاقة الأنا بالآخر من حيث هي معطى مجتمعي وثقافي طبيعي يفضي الى تشافي ذلك الوسط المجتمعي، من جهة أخرى.

وما بين هذا وذاك يجهد الشاعر في ترسيم ملامح تلك العلاقة التي تضبط ميزان الـ(أنا) والـ(الآخر)، مرةً بعدِّهِ مؤتمنًا على هموم ذلك الوسط الاجتماعي، وبعدِّ النص الشعري مستودعا مفتوحا لأرشفة تلك العلاقة بين الأنا والآخر، وهي تكشف عن أحوال ذلك الوسط، ومرةً بعدّهِ فاعلا في ضبط ميزان تلك العلاقة، معزّزا لمنظومتها القيمية، أو صانعا لها، ومصوّبا لاختلالاتها. وهو في ذلك كلّه، بين أن يكون مجلى الجمال مرة، وأن يكون مجلى الخير والحقيقة مرة أخرى. وهكذا يجد الشاعر نفسه في فضاء التساؤل والإجابة في الوقت نفسه، فهو ذات الشاعر وهو الذات المجتمعية، وهو المعنى الذي تكشف عنه العلامة، وأيضا، المعنى المتخفي تحت العلامة، ما يعني مزيدا من القلق والاغتراب وكثيرا من البوح الذاتي وقليلا من السعادة وإنشاء جديدا لعلاقة الـ(أنا) بالـ(آخر)، تراوح بموجبها الذات الشاعرة بين الـ(أنا) الشاعرة و الـ(أنا) الاجتماعية، أي بين محاولة إعادة موازنة طرفي معادلة الشاعر والواقع من حيث هو الآخر، وبين مهمة أرشفة الواقع سيميائيا.

ولهذه الكليّة الهرمنيوطيقية ما يؤكّدها في جزئيات الخطاب الأدبي المعاصر عامة، وفي جزئيات الخطاب الشعري خاصة. فإذا أضفنا إلى تلك الكليّة ما شهده الواقع العربي في العقود الأخيرة من متغيرات بنيوية كثيرة سياسيا واجتماعيا وثقافيا، خلصنا إلى أن ذلك الخطاب يعكس رؤية الـ(أنا) لتلك المتغيرات، وما تشتمل عليه من مشكلات العلاقة بالآخر، فيصير ذلك الخطاب تجليا من تجليات تلك العلاقة، زيادةً على كونه يجهد في أن يضع التجربة الجمالية ضمن نسق جديد من أنساق ذلك الخطاب مقارنة بما عليه حال الخطاب الأدبي العربي عبر العصور الأدبية السابقة. وبذلك يقدّم ذلك الخطاب لتلك العلاقة فهما جديدا ومختلفا، ولكن بلحاظ صياغتها صياغة فنّيّة، خاصة تلك العلاقة التي تكشف عن تراجع كبير لانفتاح الـ(أنا) على الـ(آخر)، ومن ثم، خلخلة بنية التواصل والمشاركة، واغتراب النص وجِدّته المجازية وتشظّي رؤاه وتنوّع أقنعته وتكثّر تناصّاته، خاصة التاريخية والدينية منها.

وبلحاظ الطبيعة النوعية لعلاقة الـ(أنا) والـ(آخر) ضمن النسق الأدبي عامة والنسق الشعري خاصة، يبدو أن تلك الطبيعة ليست كتلك التي لها ضمن النسق الاجتماعي أو الديني أو السياسي. نعم يُعدّ النسق الثقافي عامة حاضنة النسق الأدبي، ولكن النسق الثقافي "يتحول إلى علامة في النسق الشعري؛ ويكتسب قيمته بما يمكن أن يصنعه به الشاعر"(3). وعلى هذا الأساس، يبدو أن الانتقال بثنائية الـ (أنا) و الـ(آخر) من حاضنتها الاجتماعية والثقافية إلى سياقها الخاص ضمن الخطاب الأدبي، يعني الانتقال بتلك العلاقة إلى أعراف جديدة وصياغات مختلفة تعمل الـ(أنا) الشاعرة على -وليس الـ(أنا) الاجتماعية- على تأكيدها سيميائيا أولا، وتعمل سيميائية الخطاب على الإشارة إليها والتدليل عليها ثانيا، ولكن، بعد تكوينها تكوينا مختلفا، يستمد اختلافه من فاعلية الفكر الخاص والمشاعر المرهفة والوعي الحاد والرؤيا الثاقبة والموقف النفسي والطبيعة المتخيلة والمعنى الرمزي.

ولأن الخطاب الأدبي يختلف من نسق ثقافي إلى آخر، ومن جيل شعري إلى آخر، بل من شاعر إلى آخر، فإن النسق الشعري الذي يميز خطابا بعينه يختلف هو الآخر، باختلاف تلك المؤثرات وغيرها. والأمر عينه يفسر اختلاف النسق الشعري الذي يسم علاقة الـ(أنا) بالـ(آخر) عند شاعر بعينه أو عند جيل بعينه من الشعراء أو ضمن نسق ثقافي بعينه. وهذا يعني أن النسق الواحد يصير أنساقا، وتصير تلك الأنساق الجزئية مظاهر أو مكوّنات متفاعلة تعمل على تجلية البنية الكلية للنسق الشعري.

وهاهنا تبيان تلك الرؤية التي يداخل فيها مفهوم الـ(أنا) مفهوم الـ(آخر) مرة، ويبتعد عنه ويباعده مرة أخرى، دونما أن تعني المداخلة أو المباعدة قطيعة بين جنبَتَي الرؤية، ذلك أن الأنا والآخر جنبتان لحقيقة واحدة، وأن المعيار في تلمّس المداخلة والمباعدة بين تينك الجنبتين هو هيمنة إحدى الجنبتين على الأخرى، بما في ذلك الهيمنة الأسلوبية التي تتجلى من طريق سيميائية الخطاب، ومنزلات المعنى الأدبي، وبما يؤشر موقفين أدبيين عربيين رئيسين من الـ(آخر)، وتجليين سيميائيين من تجلّيات المعنى الأدبي، هما موقف المشاكلة وموقف المغايرة. والمهم تماما، عند النظر إلى تلك الجنبتين، هو مراعاة أن الموقف من الـ(آخر) موقف نسبي يختلف باختلاف السياق الاجتماعي والثقافي، ويتعدّد بتعدّد البناء الشخصي للـ(أنا)، عدا عن اختلافه من حقبة عمرية إلى أخرى، ومن جيل إلى آخر، وإن كانت الملامح العامة متماثلة بقدر ما، ما يعني أن اختلاف هويّة الـ(أنا) يفضي إلى اختلاف صورة الـ(آخر)، بما في ذلك اختلاف عمر الـ(أنا)، ومدى مواكبتها صورة الـ(آخر) وتحولاته. وهو ما انعكس، وينعكس انعكاسا جليّا من على السطح الحسيّ للخطاب الأدبي العربي عامة، والعراقيّ خاصة، بلحاظ أن الثلاثين السنة الأخيرة من عمر العلاقة بالآخر، ضمن الفضاء العراقي الذي جرت فيه تلك العقود ليس فضاء استاتيكيا ساكنا، سواء أكان ذلك الفضاء سياسيا أم كان اجتماعيا وثقافيا .

ثانيًا: مُشاكلةُ الـ(آخر)، و تمثُّلُ المعنى:

حينما يتجلى الشاعر سيميائيا، وحينما تنزع مكوّنات الخطاب وعناصره إلى التماثل، يتضح لنا أن هناك نيّة جمالية في بناء معنى أدبي تشترك فيه الـ(انا) مع الآخر، وتسمح بموجبه الـ(أنا) لآخرها بالاستدلال على المعنى ضمن إطار تأويلي تفترضه البنية السيميائية للنص. وهنا تكشف الـ(أنا) عن ملامحها الاجتماعية

والأدبية وعن تحيّزاتها التاريخية والثقافية، وهي تتحرك وتنمو تاريخيا وثقافيا وفنيا عبر الخطاب، وبموجب علاقتها الخاصة بالـ(آخر)، وبِقَصْدِ الإمساك بالمعنى.

المماثلة، هي؛ التسوية[4]، وهي، في النقد العربي القديم، اتفاق الشيئين في الجنس. وهي على هذا، غير المساواة التي هي التكافؤ في المقدار دونما نظر في وحدة الجنس مختلفا كان أم متفقا بين شيئين[5]. أما من حيث الاختلاف بين المماثلة والمشابهة، فالأشياء المتماثلة، "هي الأشياء المتشابهة ولكن الأشياء المتشابهة ليست متماثلة بالضرورة، لأن المشابهة هي اتفاق الشيئين في الكيفية، على حين أن المماثلة هي اتفاقهما في النوعية"[6].

أما الجمع بين المشابهة والمماثلة فيعني المشاكلة، "وقد تشاكلَ الشيئان وشاكلَ كلٌّ واحد منهما صاحبه. والمشاكلة الموافقة"[7]. وفي المصطلح البلاغي، المشاكلة، أن يتصاحب شيئان، فيذكر الشيء الثاني بلفظ الأول تحقيقا أو تقديرا، حتى أنهم سمّوا تلك العلاقة "المزج"[8]. والمزج؛ "خَلْطُ المِزاجِ بالشيء ومَزْجُ الشرابِ خَلْطُه بغيره ومِزاجُ الشرابِ ما يُمْزَجُ به ومَزَجَ الشيءَ يَمْزُجُه مَزْجاً فامْتَزَجَ خَلَطَه وشرابٌ مَزْجٌ مَمْزُوجٌ وكلٌّ نوعين امْتَزَجا فكل واحد منهما لصاحبه"[9]. والتشاكلية، ضمن دراسات الخطاب؛ "وحدة انسجامية تنزع إليها عناصر الخطاب"[10].

تلك المشاكلة السارية بين اللفظ واللفظ، مرة وبين اللفظ والمعنى مرة أخرى، ليست محدودة باللغة وألفاظها، بل هي سارية سريانا رابطا في مفردات الكون، وسمة واصفة للغة الكائنات، "ذلك أنه إذا كان هناك تناغم للكون وانتظام له، فإن كون النص الشعري متناغم ومنتظم؛ إن النص كون صغير صادر عن شاعر هو "نسخة الأكوان""[11]. وعلى هذا، فـ" كل شيء يماثِل، أو يُشبِهُ، أو يتّصِلُ، أو ينسجم مع كل شيء، بجهة من الجهات لا من جميع الجهات"[12]. نعم ليس هناك تطابق أو تساوٍ تام بين الأشياء، لكن ذلك التمايز الذي تؤكده الحقيقة الكونية لا يعني إمكان الفصل التام المانع بين الأشياء، إنما يعني أن اتصالا كائنا بين الشيء والشيء، وأن ذلك الاتصال المستند الى التماثل سابق الاختلاف، وأن كل كائن عبارة عن متصل، تتداخل مكوناته وتترابط ويفضي بعضها إلى بعض[13].

وبناء على ما سبق، يبدو أن ما بين الـ(أنا والـ(آخر) نوع اتصال يسبق نوع الاختلاف، وأن ما بين الخطاب والواقع الذي يعبر عنه ذلك الخطاب نوع اتصال أيضا، وهو كذلك يسبق نوع الاختلاف. أما وجود الـ(آخر) الاجتماعي والثقافي والانطولوجي ضمن محددات الخطاب فهو وجود (آخر) مختلف اختلافا تاما عن ذلك الوجود، ما قبل اللحظة التي صبغت فيها ذات الشاعر وجود ذلك الـ(آخر) بصبغتها ومزاجها.

وسنتوقف، لأجل تبيان شعرية المشاكلة، الكائنة في ثنائية (الـ(أنا) والـ(آخر)، عند ثلاثة شعراء، متجايلين، هم كلٌّ من؛ الشاعر سعيد جاسم الزبيدي (مواليد 1945)،)، والشاعر يحيى السماوي (مواليد 1949)، والشاعر عدنان الصائغ (مواليد 1955).

ولنشرعْ من عند أبعدهم غورا زمانيا، في معاناة تلك العلاقة الكائنة بين الـ(أنا) والـ(آخر)، بلحاظ تولّده، ثم بلحاظ معاصرته أكثر من جيل شعري، وصياغته تلك العلاقة استنادا إلى النوع الكلاسيكي مرة، وإلى نوع (الحرّ). يقول[14]؛

وامتُهِنَ الإنسانْ

فلا الزمانُ الكائنُ، الـ(يكونُ)، أو ما كانْ !

ولا المكانُ صالحٌ أقامَ، أم سارَ مع الركبانْ

فحولَ كلِّ خطوةٍ عيونْ

وعندَ كلّ فكرةٍ سجونْ

وراء كلِّ لفظةٍ: مقالةٍ، قصيدةٍ، ظنونْ

تؤوّلُ المعاني !

وتحجرُ المباني !

والمرءُ ما بينَهما يعاني !!

وهنا يتبيّن لنا موقف الـ(أنا) من الـ(آخر)، الذي تفصله عن الـ(أنا) طبيعته المعادية، ويتبيّن لنا أن (آخر) هذه الـ(أنا)، كائنٌ بـمكانين، أحدهما معادٍ واقعي؛

(ولا المكانُ صالحٌ أقامَ، أم سارَ مع الركبانْ

فحولَ كلِّ خطوةٍ عيونْ

وعندَ كلّ فكرةٍ سجونْ)،

والثاني، شعري يجرّده الـ(آخر) من معناه؛

(وراء كلِّ لفظةٍ: مقالةٍ، قصيدةٍ، ظنونْ

تؤوّلُ المعاني !

وتحجرُ المباني !)

أما (أنا) الشاعر فهي محاصرة بذلك الـ(آخر) حتى أنها تعجز عن امتلاك اختيارها بين المبنى والمعنى. ولهذا، وبسبب منه تلجأ الـ(أنا) الشاعرة إلى المكان البديل، الذي تبنيه أداة الاستفهام؛ (متى)، بعدّها الـ(آخر) المنشود وقد تلبّسته الأسئلة وخالطته بغية إعادة صياغته، ومن ثم تحقيق فرضية مشاكلته؛

متى أرى قصائدي ترافقُ الطيورَ في الفضاءْ؟

تحطُّ أنَّى شئتُ أو تشاءْ

متى أرى الكلامَ ليسَ سلعةً للبيعِ والشراء ؟!

متى أرى الناسَ سواءً مثلما أرادتِ السماء؟

إن ذلك الـ(آخر) الذي تعانيه الذات ليس نتاج لحظة الكتابة الحاضرة، إنه يستقي وجوده المكاني والزماني من عمق التاريخ، و **(المكان غير الصالح)** ذاك، لم يفقد صلاحه في فضاء البنية السيميائية للخطاب، بل فقدها هناك في اللحظة التي تولّى فيها التاريخ رواية تلك العلاقة بين الـ(أنا) والـ(آخر). يقول الشاعر في مفتتح النص السابق؛

روى لنا مؤرخٌ قديمْ،

في (فهرسِ النديمْ)

عن موجة الألمْ

في محنةِ الرأي السليمِ، والقلمْ،

ومهرُها في الحالتين دمْ

وما بين موقف الـ(أنا) من الـ(آخر) قبل أن تلابسه الذات، وموقفها منه بعد مشاكلته وملابسته يتكوّن الخطاب الأدبي وهو يشتغل في تلك المنزلة الوسطى، ما بين المباشرة الفجّة والغموض الملتبس، ويتخذ المعنى الأدبي طريقا سالكا وممهدا دونما خشية عليه من التشظّي. نعم يبدو الـ(آخر) متّخذًا صفة من يحاصر عصفورا في قفص، ولكن تلك المحاصرة غير قادرة على تشظية الذات، وهي عاجزة عن جعل الذات ضالّة عن بوصلة اتزانها، ما يعني عدم سلب الخطاب اتّساقه وانسجامه.

وها هو، ثانية يستدعي الـ(آخر)، ولكن، بصورة الزمان ليزيله عن مكانه من الحقيقة الواقعية، التي يرتكز عليها الزمان، جاعلا منه، بعد العدول به إلى جهة الـ(أنا) الشعرية، طرفا من طرفي المشاكلة، فيقول في مجموعة **التفعيلة الأخيرة**(15)؛

طُـلْ، لا تَـطُـلْ، لا أرتجيكَ، ولنْ أهابَكْ !

واشحذْ _ على مَهَلٍ_ حرابَكْ،

فلقدْ بلوتُ المُرَّ، إذْ أغريتَني فلزمتُ بابَكْ

ظنّاً ستُكرمُني وتُحسِنُ في سؤالاتي جوابَكْ

وظللتُ منتظراً، لتسألَ: ما جرى؟ ماذا أصابَكْ؟

أو أنْ تُطيّبَ خاطري، وتدوفَ في عَتَبي عتابَكْ

هيهاتَ ذاكَ فقد وهمتُ، سللتَ من ثوبي ثيابَكْ

وأدرتَ ظهرَكَ -لا سلمتَ- وصِغْتَ من خطأٍ صوابَكْ

الزمان، هذا الـ(آخر) العائم، الزئبقي، الذي لا يمكن الإمساك به، فهو إذا طالت آناته وتلبّثت انحنت الـ(أنا)، وإذا قصرت فتعجّلت، عدمت الـ(أنا) وجودها، وخسرت حدوثها الجديد في المكان. إنه يستفزّ الـ(أنا) بـ(**سوء إجابتها**) على تساؤلاتها، التي ما فتئت تتوالى على الذات التي (**تنتظر**).

والمشاكلة الكائنة هاهنا، هي تشخيص المكان وتجسيده، من جهة، وعَوْدٌ إلى تجريده، بعدّهِ ذلك الـ(آخر) الذي لا لا يمكن الإمساك به، من جهة أخرى، ولكن بعد مشاكلته شعريا ومواجهته عاطفيا ووجوديا، بالإفادة من ضمير المخاطب. والمهم، في هذه السيولة الزمانية أنها دليل على ما يطرأ على الذات وما يختلف عليها من تساؤلات تظلّ تكبر حتى تستشعر الذات أن الـ(آخر) بعيد عن امتلاك القدرة على منحها طمأنينةً هي بمسيس الحاجة إليها. وهذا ما يجعلها في تلك المنزلة الوسطى، مرة ثانية، فلا هي بالتي تستطيع الفكاك من مجاراة آنات الزمان المتعاقبة، ولا هي بالتي تقدر على الانفصال التام عنه، لأن الانفصال التام يعني الموت. وهكذا يبدو الـ(آخر) موجودا بقدر ما يجعل الـ(أنا) تعي وجودها، فإن طال أو لم يطل فالأمر مشروط بقدر الإحساس به، وبلحاظ الجهة التي تحقق الاتصال به أو الانفصال عنه.

وفي ضمن تلك المنزلة الوسطى التي يشتغل فيها الوعي الشعري، نتلمّس قدرة أخرى على إعادة صياغة موضوع الوعي المتمثل بالموقف الخاص من العلاقة بالـ(آخر)، وبما يكشف لنا عن حقيقة مفادها؛ أن علاقة الذات بالـ(آخر) ليست علاقة تجاورية ينهض بها (واو العطف) بين المعطوف؛ الـ(آخر) والمعطوف عليه؛ الـ(أنا)، وإنما هي علاقة ظرفية تماما، فهما الـ(آخر) في الـ(أنا)، وليس الـ(أنا) والـ(آخر)[16]. وبموجب هذه الحقيقة تصير العلاقة بين الـ(أنا) والـ(آخر) علاقة مشاركة تقوم على أساس الإنصات الذي لا يشوّشه ضجيج الاغتراب، والانفصال التام عن هيمنة الـ(آخر)[17]. وهذا ما نلمس تجلياته عند الشاعر يحيى السماوي (مواليد 1949).

في (**أطفئيني بنارك**، 2013، ص37- 38)، يقول السماوي[18]؛

كُنْ جَناحي للسّماواتِ..

الفراديسِ..

وإلا

فلتكُنْ شاهدةَ القبرِ

ومِسمارَ الصليبِ

سِرُّ دائي

أنني من دونِ داءٍ

فابتكِرْ داءً جديداً ليْ..

وكنْ أنت طبيبي..

إشفِني مني

تجدْ

ثغريَ قلباً..

ويديْ قلباً..

وأحداقيْ..

وصدريْ..

وبقلبي لك آلافَ القلوبِ

الشاخص الأول الذي يدعونا نداؤه النصّيّ إلى التوقف عنده، بعدّهِ معادلا موضوعيا لعلاقة الـ(أنا) بالـ(آخر)، وهي تتجلى في الخطاب الأدبي السماوي، هو عنوان المجموعة؛ (**أطفئيني بنارك**)، الذي يجمع بين طرفين؛ الطرف الأول، هو؛ (الإطفاء، وضمير المتكلم)، أما الطرف الثاني فهو (النار وضمير المخاطب). وإذا تأملنا سيميائية العنوان وطرفيه، وجدنا اتصال ضمير المتكلم/ـ(أنا) بالـ(إطفاء)، واتصال ضمير المخاطب/ الآخر بالـ(النار). ومما تجلّيه القراءة الهرمنيوطيقية في المعنى، أن (آخر) السماوي (نار)، ولكنها ليست نارا محرقة تستدعي مباينتها، بل نار تتوسّل بها الـ(أنا)، وهي تستعين ببنية المفارقة الشفيفة، بغية إطفاء نار الـ(أنا)، كأنها الماء الذي به تمتلك الحياة صفاتها، وتمتلك الأنا شعورها الآمن بوجودها.

ومن التجليات الأخرى لتلك العلاقة القائمة على المشاركة بين الـ(أنا) والـ(آخر) في نصّ السماوي، تعدّد أصوات الـ(آخر)، وعلوّ نبرتها، ولكن دونما أن يكون لها هيمنة على صوت الـ(أنا) الذي يستند إلى صوت الـ(آخر) ليؤكّد هويته ضمن لفيف من الهويّات المختلفة. وهذا ما يشير إلى معنى تأمّلي يتجاوز عتبة الانفعال إلى مثابة التفاعل. ولهذا تتزاحم الأسماء والرموز والشخصيات التاريخية والدينية والشعبية في نصّ المشاكلة الذي يكتبه السماوي، من مثل؛ (أخوة الصدّيق يوسف)، (دجلة والفرات)، (الفتى الضلّيل)، (اللات والعُزّى)، (الوجاق)، (الفرض الواجب والفرض المستَحبّ)، (بادية السماوة)، (طاسة اللبن الخضيض)، (نخلة البرحي)، (غسلين والزقّوم)، (صوفائيل)، (طُوىً)، (طور سيناء)، (الدُونيّ)، (حسنة ملَص). إلخ. ويذهب الشاعر بعيدا، في ترسيم تلك العلاقة، ليرى أن ما تعانيه الـ(أنا) عائد إليها هي، وأن ما يحدّها من هزائم وخسارات مردّه إلى عجزها وضعفها لا إلى سلطة الـ(آخر) وهيمنته. وهنا تصير ال(أنا) أوسع من أن تحيط بها حدود الذات المحايدة، فتتخلى عن مباينتها وتندك بمشاكلتها لأنا عراقية تنوء بهزائمها وينوء الشاعر بحملها. يقول، في المجموعة نفسها[19]؛

لم يخُنْ فارسَهُ المضمارُ والسَّرجُ..

ولا خانت شراعي الرّيحُ والموجُ..

بريءٌ من دمي الأخوةُ والذئبُ !

أنا كنتُ عدوّي

(...)

فأنا

كنتُ وجاقي..

ووقودي.. ورمادي.. ودُخاني..

ولهيبي..

وضحاياي.. وأسرايَ..

أنا المنتصِرُ المهزومُ بالوردةِ

والناجحُ

في شوكِ رسوبي

كذبَ القيثارُ.. والسُّمّارُ.. واللهوُ..

فلم يصدقْ معي

إلا صُراخي.. وأنيني..

ونحيبي..

ودوما، وفي كلّ مرة، نجد أن الشاعر يؤكد مشاركته الـ(آخر) موضوعه الحميم، موضوع؛ المرأة. فالمرأة وسيط تواصلي، يجعل من الـ(أنا) والـ(آخر) مركّبا ثقافيا وأنطولوجيا، ويجعل من الخطاب الشعري خطاب مشاكلة، يجمع بموجبه الشاعر بين متماثلين في جنس الإنسانية ومتشابهين في كيفية الانتصار على تلك العذابات القاتلة. فالـ(آخر) الذي يُعدّ طموحا بالنسبة إلى الشاعر، مُشاكل الـ(أنا)، حتّى إذا ذكرَ الـ(آخر) أرادَ الـ(أنا). وهو ما يتجلّى واضحا من على السطح الحسيّ للنص، بكل ما يزخر به من فنون المشاكلة التركيبية

النحوية والبلاغية. فالمعنى ينساب بوساطة الجملة، ومن طريق المفردة الواحدة التي قد تكوّن خطابا قائما بذاته، وبحيث يجيء التركيب الشعري متسقا؛ شكلا، ومنسجما؛ معنىً ودلالة.

أما الشاعر عدنان الصائغ، فيشاكل الـ(آخر)، لا بعدّهِ الـ(أنا) الاجتماعية، بل بعدّهِ الـ(أنا) الشاعرة التي تدفع لأجل هذه المشاكلة ثمنا باهضا، يتمثّل بالنفي والعزلة، وبما يسمح لنا أن نطلّ على جوّانيّاته وبناه النفسية الخبيئة وشقائه المرير. يقول[20]؛

نسيتُ نفسي على طاولة مكتبي

ومضيتُ

وحين فتحت خطوتي في الطريق

اكتشفت] أنني لا شيء غير ظلّ لنصٍ

أراهُ يمشي أمامي بمشقةٍ

ويصافحُ الناسَ كأنه أنا

هذا النصّ الذي يتوسط المسافة الثقافية والوجودية والجمالية بين (أنا) الشاعر الاجتماعية وأناه الشعرية من جهة، وينهض على تخوم تلك المسافة بين الشاعر والـ(آخر)، لم يقل إلا ما تريد الـ(أنا) الشاعرة قوله، أما ما تريد الـ(أنا) الاجتماعية فلا إمكان للبوح به. يقول في نص؛ **(تأويل)**[21]؛

يملونني سطوراً

ويبوّبونني فصولاً

ثم يفهرسونني

ويطبعونني كاملاً

ويوزّعوني على المكتباتِ

ويشتمونني في الجرائدِ

وأنا

لم

أفتحْ

فمي

بعد

إن صورة الذات المغتربة، هاهنا، ليست الصورة التي تنفصل فيها الذات انفصالا تاما عن الـ(آخر)، وبحيث يصير (الآخر هو الجحيم). ذلك أن الـ(آخر) هو (**تأويل**) الـ(أنا). نعم قد يكون التأويل سيئا، وقد تكون الذات في غربة جراء هذا التأويل، ولكن علاقة الـ(أنا) بالـ(آخر) لا مناص منها ولا فكاك. بل إن "الذات في استبعادها الآخر إنما تستبعد وتقصي الإنسان نفسه"[22]. وهذا ما يعمل على إعادة اكتشاف الـ(أنا)، بدليل العود إلى جوانّياتها الموغلة في البعد، كما يعمل على إعادة بنائها، ولكن شعريا.

في نص (أبواب)، يقول الصائغ[23]؛

أطرقُ باباً

أفتحهُ

لا أبصر إلا نفسي باباً

أفتحهُ

أدخلُ

لا شيء سوى بابٍ آخر

يا ربّي

كمْ باباً يفصلني عنّي

والذي يُلحظُ، هاهنا، هو أن كلّ بابٍ من تلك (**الأبواب**) يُفضي إلى الذات عينها، بما يكشف عن صيرورة الذات غيرها فهي أقرب إلى الآخر منها إلى الذات، وهو ما يزيد من بحثها الشعري عن منافذ ومسالك لاكتشاف مدى مشاكلتها الـ(آخر) أو مفارقته، ومن ثم، الخلوص إلى صياغة أخرى للـ(آخر)، صياغة تنتشله من معاناة الـ(أنا) النفسي، لترقى به إلى الـ(أنا) الشعري المستند إلى الذات الواعية، ولتخلصه من مأزق أن يكون الـ(آخر) هو المغاير والمناقض، خاصة حينما تعمل الآخرية على تكوين الذاتية وبنائها، وإنْ من طريق عذاباتها وآلامها وانكساراتها وخيباتها المتواصلة التي تسبّبت الآخرية فيها، وهي تتخذ موضع المواجهة مع الذات.

وفي كل ذلك وهذا، يبدو الخطاب الأدبي، المنصبغ بصبغة عدنان الصائغ مشاكلا لخطابَيْ سعيد الزبيدي ويحيى السماوي، مع فارق أنه وهو يتقصّد معناه، يستعين بخطوات قصيرة تلوّح لآخرها المتلقي بالكثير من الوهج، ولكن الموجز والمكثف. ما ينبئ عن تفريعٍ مختلِف من تفريعات الخطاب الأدبي العراقي خلال الثلاثين

السنة الأخيرة، سيمهّد لحقبة برزخية تفضي إلى خطاب المغايرة الذي يستند إليه الجيل الشعري اللاحق وهو يتمثّل أدبيا علاقته بالـ(آخر) المغاير، وليس المشاكل.

ثالثًا: مُغايرةُ الـ(آخر)، وتمثّلُ المعنى:

حينما لا تبدو الـ(أنا) في علاقة مشاكلة مع الـ(آخر)، نجدنا أما لحظة اجتماعية وثقافية وانطولوجية أخرى، غالبا، تنكفئ فيها الذات إلى قلقها الوجودي فتمتدّ به إلى الـ(آخر) بغية التخلّي عنه بل مواجهته، فهي لا تمتزج به ولا تخالطه ولا تصبغه بصبغتها بل تنفصل عنه وتفارقه نفسيا ووجوديا، وإن عايشته اجتماعيا في زيّه ومقتنياته وطريقته في العيش وما يشاهده وما يسمعه. إنها اللحظة التي تصير فيها الـ(أنا) مباينة مفارقة، لأن الـ(آخر) غيرها، ولأنها تحاول أن تنتزع ذاتها منه، بكل ما تعنيه محاولة الانتزاع تلك من معاناة، وبكل ما تبديه تلك المعاناة من مظاهر الاحتجاج والرفض والثورة، وبكل ما تؤول إليه أحيانا من نهايات الهرطقة والتشظّي والغموض والالتباس والتعالي. وكل ذلك، يتضح أشد اتضاح حينما تكون تلك الـ(أنا) (أنا) الشاعر الذي يصبغ ذات الـ(آخر) بصبغة الكائن الملتبس والاستثنائي المتوثب دائما لقراءة الطموحات الوجودية التي تتراجع أمام مطامع القوة والإلغاء ومحاولات التيئيس والخضوع ومخاطر انحلال الذات وتغييبها أو تذويبها وإضافتها بِعدِّها ملحقًا أو نكرةً لا بد من تعلّقها وتعليقها بضمير الـ(انا) الكامن في ذات الـ(آخر). وهذا كلّه يعني أن إحساس الذات بغيريّتها إحساس حادّ، وأن حدَّة استشعارها قيمتها الثقافية والوجودية تجعلها ترى قِلِقَةً مستَفَزَّةً، أنها مُهَدَّدّة بوجود (الآخر) الذي هو عَدَمُ وجودها، فتجهد في الانفكاك منه، ومن مشاكلته التي بدت في المبحث السابق من هذا البحث.

وبهذا المعنى، عندنا، ستكون (المغايرة) الشعرية من حيث هي تجلّي علاقة الـ(أنا) بالـ(آخر) المختلف أوسع في دلالتها من مفهوم (الاختلاف)، "والفرق بين غيرين ومختلفين أن الغيرين أعمّ فإنّهما قد يكونان متفقين. فكل خلافين غيران ولا عكس"[24]. أما المغايرة، اصطلاحا، فهي؛ "كون الموجودَين بحيث يُتَصوَّر وجود أحدهما مع عدم الآخر، يعني أنهما يمكن الانفكاك بينهما"[25]. والمغايرة التي هي اشتقاق معنى (غير)، "لا تتعرّف بالإضافة إلا إذا وقعت بين متضادين (...) والمغايرة مستلزمة للنفي"[26]. أما كون الشيئين بحيث يُتصوَّر وجود أحدهما بعدم الآخر فيقابله مفهوم الهوية، والعينية، "وهي كون المفهوم من الشيء عين المفهوم من الآخر"[27]. وهي في المصطلح اللساني القديم؛ "استعمال الكلام في معنى عكس معناه الأصلي للخوف أو التهكّم، أو التفاؤل، وذلك كإطلاق لفظ مَفازَة على الصحراء التي يَبيد (يهلك) فيها المتجوّل بدلاً من بيداء تفاؤلاً بفوزه في اختراقها"[28].

وبناء على ما سبق، ولعلنا لا نذهب بعيدا، إذا قلنا، إنّ ما بين الـ(أنا) والـ(آخر) ضمن نسق المغايرة، نوع اختلاف يتلو نوع الاتصال والمشاكلة، وإنّ ما بين الخطاب والواقع الذي يعبّر عنه ذلك الخطاب نوعُ عنْفٍ لغوي حادّ، وهو كذلك لاحقٌ مشاكلةَ الاتصال. أما الـ(آخر) الاجتماعي والثقافي والانطولوجي، ضمن محددات هذا الخطاب، فهو الـ(آخر) السابق الذي حفل بتجليته خطاب المشاكلة، مع فارق، أن العلاقة به علاقة مختلفة،

وأن التفاعل الإيجابي الهادئ الذي شهده خطاب المغايرة ليس تفاعلا بذلك المعنى، بل انفعال حادّ ومختلف اختلافا تاما.

ولْنشرع الآن في بسط القول في شعرية خطاب المغايرة هذا بعد تمام ما قبَضَتْه التوطئة السابقة، وذلك استنادا إلى ثنائية الـ(أنا) والـ(آخر)، عند شاعرين، ينتمي أحدهما إلى جيل الخطاب الذي أسميناه خطاب المشاكلة، وهو الشاعر كاظم جهاد (مواليد 1955)، والشاعر الشاب علي محمود خضير (مواليد 1983).

في نصِّ، وسمه، هكذا؛ (**جلودٌ مستعارة**)، يقول، الشاعر كاظم جهاد في مجموعته؛(**معمار البراءة**)[29]؛

الآنَ ينتظرني الجهدُ الأعظمٌ، والوثبةُ العاليةُ التي تُعيدُ رتْقي من

عدَمي وتغطّي عُريي وتَهبني أن أكون

لعل (**وثبة**) الـ(أنا)، هاهنا، بكل ما تحمله من معاني النديّة تعبيرٌ جليٌّ عن عُنف اللغة من جانب، وعن عُنف الـ(أنا) من جانب آخر. نعم ثمّة (العدَميّة)، و(العُري) اللذان تجهد الـ(أنا) في القفز على موانعهما وأسوارهما، ولكن ذلك الجهد جهدُ الذي يريد الفوز بوثبة الـ(كينونة)، بكل ما تعنيه (الكينونة) من وعي الذات بذاتيتها، وبكل ما تشي به من قدرة الـ(أنا) على الانفعال والفعل، وبكلّ ما تُلوّح به من رغبة الإنسان في أن يوجد حيث لا يحدّه الـ(آخر) الذي يريد أن (يعدمه) وجوده و(يعرّيه) من امتيازه وغيريّته، ويسلبه سعادته الشاقّة حينما يمسك بمعناه، ويختار له هامش الحياة. ولهذا يقول في نصّ (**عراقيون**) من المجموعة نفسها[30]، وهو يمايز بين ما قبل تلك الكينونة وما بعدها؛

عاثرين وسطَ فخاخٍ من الظلام

كذلك كنّا

دائرينَ طويلاً حولَ العالَم

بإزاءِ هامشهِ المُزَنَرِ بالأحداث.

(...)

عندما يخطو الواحدُ منّا

فَطويلا كانَ يتحقّقُ

من أنّه على حُلم جارِهِ

لا يدوس.

ثم يقول؛

فجأةً ارتطمنا باليابسة

كان ذلك

كمثل سقوطٍ في الديمومة

غطسةٍ في الزمن، نعاسٍ دون انتهاء.

وهو، في معرض احتجاجه على تلك البراءة الهادئة التي تسم علاقة الـ(أنا) بالـ(آخر)، واقتراح استبدال هدوئها بجموح البراءة، حيث يحتشد الزمن النفسي، يعقبه الزمن الشعري لمعاينة تلك الـ(أنا)، وهي تنتفض على آخرها وتتمرّد عليه وتغايره. يقول جهاد كاظم، في نص (هجرات)[31] ؛

كان ينبغي أنْ نبلغ النّبعَ دونَ أن يضحّي بقرينهِ أحد. كانَ

ينبغي أن نهدرَ وسطَ العاصفة بجلاءٍ أكبر. كان ينبغي أن يتخلّص

الشعراء من جلّادٍ ما برحَ في داخلهم يعمل.

ولكن ضغط الـ(أنا) التي تطلّ على فضاء الـ(آخر)، ضغط فاعل، ما يفضي بـ(أنا) الشاعر إلى النظر إلى ذلك الـ(آخر)، ولكنّ الـ(آخر) بعيد، إلى حدٍّ يجب معه أن تصير المسافة الفارقة بين الـ(أنا) والـ(آخر) عارية وموحشة ووعرة تماما، وهذا ما يرجع بالذات، بعد تعريتها تلك المسافة، إلى مزيد من الشعور بصعوبة التعرف إلى من يجاور الـ(أنا) من ذوات الـ(آخر)؛ (جيراني المحتملين). وهذا ما يبدو واضحا في نص **(غرفة)**[32] ؛

الغرفة مطلّةٌ على العراء. ولكي أعرفَ جيراني المحتملينَ عليَّ أن

أعبرَ فراغاتٍ بالغة الوعورة. وإلى رحابة الفضاء ينضاف خجلي

أما علي محمود خضير، فيقول، في تبيان تلك العلاقة الشائكة بين الـ(أنا) والـ(آخر) ضمن مجموعته **(الحالم يستيقظ)**[33]؛

حدَّثتُكَ، ذاتَ غَور:

لا ملاذ لمن رأى الشمسَ تخفقُ مشنوقةً بحبلِ العاصفة

لا ملاذّ لمن أرجأ خَلاصَهُ برميةِ زهر

لا ملاذّ لمن بدَّدَ بأسَهُ في بهتانِ خلوده

لا ملاذّ لي وأنا أُعدّدُ ملاذاتهمُ الخاسرة !

قلت:

((إنْ كنتَ خائفاً من المنعطفِ القادم،

فأغمضْ عينيك

وأقبلْ عليه، دونَ اكتراث

هكذا ستغيظ الريحَ بسخريةٍ بسيطة

وقليلٍ من الشجاعةِ الممكنة))

(أنا) علي محمود خضير، هنا، تستعين بالحلم، على حين يستعين خضير الشاعر بالخيال الأدبي من أجل إقامة نوع من الأدبية المغايرة، وبغية التخلّص من فائض الخوف والقلق من فقدان ألواذ الأمان التي تحققها طمأنينة الاستتار بالذات مخافةَ مشاكلة الـ(آخر) يلجأ الشاعر إلى (آخر) مفترض يقيم بوساطته علاقة حوارية لا وجود لها في الواقع، حيث (**الخوف من المنعطف القادم**)، هذا الخوف الذي سيتحول إلى (**وسواس**)(34)؛

يا من تستدعي أشباحَكَ واحداً بعدَ واحدٍ لتفرشّ بهم ليلّكَ. وتجُرَّ

غدَكَ بوسواسٍ أمسِكَ. قديمةٌ نُدُوبُكَ وساخنةٌ.

فكابوسُكَ الطفلُ لا زالَ يشربُكَ على عُجالةٍ منذُ عشرينَ أو أقلّ،

يشربُكَ ثم يُعيدُكَ إلى الكأسِ نفسها وهو يَضحك.

ولعل أهم ما تمتاز به جدلية العلاقة بين الـ(أنا) والـ(آخر) في الخطاب الأدبي الذي يقدمه علي محمود مقارنة بما قدمه كاظم جهاد، مع ما بينهما من نقاط التلاقي المعرفي في خطاب المغايرة، هو تلك الكثافة المجازية المستندة إلى استدعاء الواقع الغريب إلى النص، استدعاء عقليا، ومن ثم، إعادة صياغته، معرفيّا وأنطولوجيا، وأخيرا، إعادة صياغته أدبيا. أما علي محمود خضير فيعمل على إسقاط الواقع الحلمي على النص، ومن ثم، إعادة صياغة الواقع بعد مفارقته ومغايرته عاطفيا، وبالنتيجة إعادة صياغته أدبيا. وهذا هو ما عليه الحال في الخطاب الشعري العراقي المعاصر، بعامة، شرط انتمائه إلى نسق المغايرة، وهو كذلك، في الواقع الاجتماعي المعيش، الذي يتبنى مغايرة الـ(آخر). وفضلا عن ذلك، يبدو علي محمود خضير متفقا مع (آخر) يقترحه هو، مختلفا مع ما يقترحه الواقع، برموزه ونصوصه وشواهده التاريخية والدينية والثقافية، ولكن جهاد كاظم، لا يقترح مثالا لـ(آخر) غير ما يقف عنده اختياره العقلي الحرّ، ابتداء، فهو رافض الـ(آخر) غالبا، متمردا عليه، إلا إذا انسجم مع إمكانه الثقافي والمعرفي، وما أقلّ من ينسجمون معه وينسجم معهم، وبناء عليه، ما أقلّ ما يتخلّى خطابه الأدبي عن صدمة الجمع بين طرفي التركيب الشعري، على مستوى التركيب داخل الجملة، وعلى مستوى التركيب الجملي، ما يؤشّر علاقة متوترة بين الـ(أنا) والـ(آخر)، وفجوة كائنة بينهما، تخلّى كاظم جهاد عن ردمها بل زاد في ملامسة غورها وغيريّتها.

يقول في نصّ (**تهذيب الألم**)(35)؛

أنا الذي أُريق عمري باحثا عن عينٍ نظيفةٍ وقلبٍ طفلٍ

عن أجسادٍ من الضوءِ وملائكةٍ ممكنين

عن جدرانٍ بلا لافتاتٍ ورفقةٍ لا يضعون أقنعةً.

البحث العاطفي المضني عن (آخر) بـ(**عين نظيفة**)، و(**قلبٍ طفلٍ**)، سيفضي بالشاعر إلى الانفصال عن الـ(آخر)، ومباينته، ولكن، دونما تأثر بذلك الانفصال، وإن ظاهرا، على الأقلّ، ثم إن ذلك البحث سينتهي بالشاعر في نهاية المطاف إلى (**خلوة دافئة**)، وحيدا، بعيدا عن صور الـ(آخر)، وتكشّفه في (**الحشود المربكة**)، و(**الوجوه العجولة والوجوه الحائرة**). يقول، في نص؛ (**حتى تجد خلوتك الدافئة**)[36]؛

لن يهمَّكَ...

ستمشي في الشارعِ المكتظِّ وقتَ الغروب

وتحتدمُ بالحشودِ المربكة

الوجوهِ العجولةِ والوجوهِ الحائرة

ستنسَى أنّك نُسِيتَ

وتوفِّر دموعكَ قليلاً،

قليلاً حتى تجدَ خلوتَكَ الدافئة

أخيرا، لعلّ أهم ما يميز خطاب المغايرة، هو محاولته صناعة المعنى في تلك اللحظة الحادة التي تتغاير فيها المعاني المعجمية مع المعاني الشعرية، ما يعمل على مفارقة المعنى الشعري لمتطلبات الفهم، وكأنّ فهم المتلقي معادل موضوعي لإرادة الـ(آخر) الذي يصرّ خطاب المغايرة على مفارقته، استنادا إلى تحميل سطح النصّ الحسيّ الكثير من الصور التي تحفّز المتلقي- الـ(آخر) على الانفصال والانسحاب أمام ما يزدحم به ذلك السطح الحسيّ من وسائل دفاع منيعة تأبى إلا أن تعرض الـ(أنا) وهي في حالة مواجهة مع الـ(آخر).

الهوامش:

(1) الرويلي، د. ميجان، والبازعي، د. سعيد 2007، دليل الناقد الأدبي، ط5، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء– المغرب، 2007؛ ص22.

(2) ينظر؛ الخليل، د. سمير، (د.تا) دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، مراجعة وتعليق د. سمير الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان؛ ص10.

(3) أحمد يوسف، د. عبد الفتاح، 2010، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت– لبنان؛ ص125.

(4) ينظر؛ ابن منظور، (د. تا)، معجم لسان العرب، دار صادر، بيروت- لبنان؛ مادة (مثل).
(5) ينظر؛ مطلوب، الدكتور أحمد، 1989، معجم النقد العربي القديم- الجزء الثاني، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد؛ ج2/ 353.
(6) صليبا، الدكتور جميل، 1982، المعجم الفلسفي- الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان؛ ج2/ ص 422.
(7) ابن منظور، لسان العرب؛ مادة شكل.
(8) مطلوب، معجم النقد العربي القديم؛ ج2/ص191.
(9) ابن منظور، لسان العرب؛ مادة مزج.
(10) علوش، د. سعيد، 1985، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، 1985؛ ص 130.
(11) مفتاح، د. محمد، 2005، رؤيا التماثل مقالة في البنيات العميقة، ط1، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب؛ ص 225.
(12) المرجع السابق؛ ص5.
(13) المرجع السابق؛ ص 299.
(14) الزبيدي، سعيد جاسم، 2007، على رصيف الغربة، ط1، دار كنوز المعرفة، عمّان؛ ص20.
(15) الزبيدي، سعيد جاسم، 2014 ، التفعيلة الأخيرة ، ط 1 ، دار كنوز المعرفة ، عمّان، ص 140.
(16) أمير، عباس، 2014، "إضبارة النصّ، وهيرمنيوطيقا الوعي بين تناصّات النصّ وتناصّات القراءة"، الدائرة التأويلية: تجاوز اغتراب الوعي الإنساني، إشراف وتقديم د. عبدالله بريمي، ط1 ، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد؛ ص 382.
(17) حسن، د. ماهر عبدالمحسن، 2009، مفهوم الوعي الجمالي في الهرمنيوطيقا الفلسفية عند جادامر، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان؛ ص 62- 63.
(18) السماوي، يحيى، 2013، أطفئيني بنارك ، ط1 ، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق؛ ص37- 38 .
(19) المرجع السابق؛ ص31، ص34- 35.
(20) الصائغ، عدنان، 2006 ، تأبَّطَ منْفى ، ط2 ، آفاق للنشر والتوزيع القاهرة؛ ص5 .
(21) المرجع السابق؛ ص6.
(22) الرويلي، د. ميجان، والبازعي، د. سعيد، 2007، دليل الناقد الأدبي، ط5 ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب؛ ص22.
(23) الصائغ، يوسف، تأبّطَ منْفى؛ ص8.
(24) الكفوي، 1998، الكليات، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت- لبنان؛ ص 666.
(25) المرجع السابق؛ ص 665.
(26) المرجع نفسه؛ ص663.
(27) صليبا، الدكتور جميل، المعجم الفلسفي؛ ج2/130.

(28) وهبه، مجدي، وكامل المهندس، 1984 ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان بيروت– لبنان؛ ص 376.

(29) جهاد، كاظم، 2006 ، معمار البراءة، ط1، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)– بغداد؛ ص11.

(30) المرجع السابق؛ ص12– 13.

(31) المرجع السابق نفسه؛ ص 15.

(32) المرجع السابق نفسه؛ ص 19.

(33) خضير، علي محود، 2010، الحالم يستيقظ ، ط1، منشورات ((الغاوون))، بيروت– لبنان؛ ص12– 13.

(34) المرجع السابق؛ ص14_ 15.

(35) المرجع السابق نفسه؛ ص20.

(36) المرجع السابق نفسه؛ ص21.

المصادر والمراجع

- ابن منظور، (د.تا)، معجم لسان العرب، دار صادر، بيروت– لبنان.
- أحمد يوسف، د. عبد الفتاح، 2010 لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت– لبنان.
- أمير، عباس، 2014، (إضبارة النصّ، وهيرمنيوطيقا الوعي بين تناصّات النصّ وتناصّات القراءة)، الدائرة التأويلية: تجاوز اغتراب الوعي الإنساني، إشراف وتقديم د. عبدالله بريمي، ط1، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد.
- جهاد، كاظم، 2006، معمار البراءة، ط1، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)– بغداد.
- حسن، د. ماهر عبدالمحسن، 2009، مفهوم الوعي الجمالي في الهرمنيوطيقا الفلسفية عند جادامر دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان.
- خضير، علي محود، 2010، الحالم يستيقظ، ط1، منشورات ((الغاوون))، بيروت.
- الخليل، د. سمير، (د.تا)، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، مراجعة وتعليق د. سمير الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.
- الرويلي، د. ميجان، والبازعي، د. سعيد، 2007، دليل الناقد الأدبي، ط5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب.
- الزبيدي، سعيد جاسم، 2007، على رصيف الغربة، ط1، دار كنوز المعرفة، عمّان.

  2014، التفعيلة الأخيرة، ط1، دار كنوز المعرفة، عمّان.
- السماوي، يحيى، 2013، أطفئيني بنارك، ط1 تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
- الصائغ، عدنان، 2006 تأبَّطَ منْفى ط2 آفاق للنشر والتوزيع القاهرة.
- صليبا، الدكتور جميل، 1982، المعجم الفلسفي–الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني بيروت.
- علوش، د. سعيد، 1985، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

- الكفوي، 1998، الكليات، تحقيق د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت– لبنان.
- مطلوب، الدكتور أحمد، 1989، معجم النقد العربي القديم– الجزء الثاني، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- مفتاح، د. محمد، 2005، رؤيا التماثل مقالة في البنيات العميقة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب.
- وهبه، مجدي، وكامل المهندس، 1984، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت– لبنان.